صحيفة أدب وأخلاق

عطفـــة القاياتي

للأستاذ حسن القاياتي

بقية ما نشر في العدد الماضي

إنا ليملكنا الزهو باطلا بالكلام البحت من ابتناء الضخم وإصلاح الطرقات ولا نعمل على الحاجي الحتم من ابتناء النشء وإصلاح العقول، ولولا النبل في بناة الأهرام لما فخرنا بالأهرام

يبني الرجالَ وغيره يبني القرى ... شتان بين قرى وبين رجال

ما أبين الرياء الخلقي والاجتماعي فينا ! هذه حالنا من القذر الجسماني والمنزلي والشعبي لا ما تسمع أيها القارئ، بل ما تشهد وما تلمس لا ما تحدث. وقد حدثني ناظر أولي أن طبيب مدرسته رأى إحدى النافذات في المدرسة بدون أسلاكها الدقيقة فغضب لصحة التلاميذ غضبة كادت تعطل الدراسة لولا توسل صاحب المدرسة إليه واستخذاؤه

إنا لأمة لا قوام لأمرنا ولا اعتدال ، فينا ينبت نَشْؤُنا على المذابل وشواطئ المستنقعات، ولا يقنعنا الصلف أن يدرس هذا النشء إلا في الروضات والجنات !

ونحن أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

أما وقد أجرت كلتنا حديث الحمامات القديمة فطالما عرفتنا وعرفناها كما عرف المصريون حماماتهم وعرفتهم . دخلنا نحن حماماتنا قديماً وآنفاً ودخل المصريون حماماتهم ، وتجردنا لها داخلين وتجردوا داخلين إليها وخارجين ، ودخلناها جنساً واحداً ودخلوها ومعهم الجنس اللطيف ، فإن تصعَّد في حمامنا نَفَس أو ندِيَ جبين فإنما يتصعد النفس أو يندي الجبين في الحمامات المصرية من بعض ما يجد أصحابنا من حرقة على الحسن المتجرد السليب أو غضاضة على الحسن

ما أفتن الحمامات في مصر، أندية ترفيه، ومجالي نعمة وغضارة! بل مبتعث حكمة آونة وعظة، يقبل عليها شيع متباينة من الناس حتى إذا نكَّرهم في سورهم التجرد من الثياب وهي مظهر الجلال الزائف ، نكرهم في نفسياتهم وطبقاتهم فلا يستبين للناظر المتوسم فيهم أيهم السيد السريّ ، وأيهم السوقي الزري، ومن العالم الخطير والعامي القَدْم ؟ فربما شهد رجلا عليه مسحة من طراوة العيش وبضاضة التجرُّد، وشهد آخر تعلوه طبقة من التقشف والشحوب وفقد الطرية والنضرة، فأقبل يحسب ذاك سيداً ضخما من رجالات الشعب ويعتبر هذا رجلا من عرض الجماهير أي رجل هذا، حتى إذا أفضت بهم خاتمة المطاف إلى ملابسهم ورجع كل مستحم إلى ثيابه وحليته فشد ما يهول هذا المتوسم بل يملأ فمه ابتسامة من أمر صاحبيه أن أمثلهما في حكم نظره وتوسمه حوذي أو سائس بغل أو قرد، وأن ثانيهما الزَّري عنده سيد نبيل من تقتدي بهم الأمم ومحاضر الملوك

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أســـد هصور

ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

أكبر اليقين لا الظن أن الله ينظر إلى خلقه كنظرتك إليهم في حمامهم مجردين من كل عظمتهم المصنوعة الساحرة ، أنبلهم عنده أنبلهم نفساً لا ثوباً

أجل . إن الحمامات هذه خليقة بأن تُجدّ لنا هذه الحكمة والعظة :

إذا أنت وزنت الرجال وقدرتهم فانظر إليهم مجردين من كل مظاهرهم الخداعة كما تنظرهم في حمامهم ، ثم ليكن قضاؤك على الألباب لا الثياب

ناهيك من الحمام بيت فخم أنيق يقطر بنضرة ورفاهية كما يقطر بماء وحرارة ، ويتنفس بدفء وفتور ساحر معجب كأنه فتور الجفون كله حسن وطلاوة وتنهدات كتنهدات الصبابة بيد أنها برد وغبطة ، ذلك إلى ما في سجيته من إرسال النفوس على السجية والتحلل ساعة من قيود الكلفة والتمثل الاجتماعي وخلع شيء من التوقر القائل في خلع الأثواب إلى ما فيه من سويَّة في المكانة وأسوة بين الطبقات

بيد أن حمامنا القديم ربما تكشف عن هنات شائنة لو تجرد منها لكان نعيماً دنيوياً . أناشدك الله أيها القارئ ماذا أنت قائل إلاّ الشر في ذلك البخور الكريه البغيض الذي يحرقونه أو يطلقونه كما يقولون ليطير الأرواح الخبيثة وقد شهد الله أنه من بغضه وكراهيته خليق بأن يطير الأرواح الطيبة قبل الخبيثة

ليس يَقَرُّ بعيني عصري متأنق صقلته الحاضرة أن يشهد في جنبات الحمام هذه الصراصر والحشرات سباحة حواليه تغذي

بها عينه ، ولا يطيب قلب هذا المتحضر أن يتولى نظافته وصقله شيخ متوقر أشمط اللحية فيمتهن جلال هذه السن أو يذكر به جده الأعلى فيفضي على استحياء

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليـل تسبيحاً وقرآنا

حدثني أزهري عصري النزعة حلو الفكاهة حار النادرة قال : دخلت الحمام فاستدعيت الخادم « صاحب الكيس » فأقبل عليّ شيخ أشيب دالف يحبو إلى التسعين ذكرت به جدي الأعلى ، فلما دنا مني ليأخذ في مهنته جعلت أقطع النظر بينه وبين صورة في نفسي لأستاذي العالم في الأزهر أستاذ البلاغة ، فإن عليه مسحة منه أبينها هذه اللحية المسترخية ؛ ثم تقبلت خدمته على تكرُّه ومضض ، وقد رمت رأسي بالإطراق وكسر الجفون ذكرى جدي الأعلى وتشابه شيخي الأكبر . قال محدثي الرقيق : لم أكد أتعرف حاجة للحامات بخدمة هؤلاء الشيوخ الفانين خاصة وهذه اللحي المسترسلة حتى ابتدرت نظرة إلى ساحة الحمام فإذا الصراصر تمرح فيها فقلت : لقد علمت الآن: هذه المكانس لهذه الحشرات

ولحيـة يحملهـا مائق مثل الشراعين إذا أشرعا
لو غاص في البحر بها غوصة صاد بهـا حيتانه أجمعا

حُبِّبَ إلى راقصة فنانة بعيدة مسرى الصيت من معبودات الجماهير كما يقولون أن تزور حمامنا هذا فكان لها ما تشهت من تلك الزورة، فلما قضت منه كل حاجة خرجت إلى الطريق ، وكان قد تسمع إلى خبر زورتها هذه فصائل من ولدان الحارة ونشئها الصغار يحبو أكبرهم إلى العاشرة ، فلم تكد الفنانة تبدو خارجة من الحمام حتى تلقوها بالتحية فاصطفوا فريقين ، قطعة هنا وقطعة هناك ، وقد احتملوا بأيديهم الشموع موقدة تزهر نهاراً يحتفلون للزائرة المفداة ، وأقبلت هي بسامة الثغر مزهوة تخطر تكطرتها على المسرح بين صفي نور وإجلال

لقد تقضى زمن بعيد من لدن هـذه الذكرى وما يتقضى العجب منها ، أتساءل : هل استخف الصبية لتحية هذه الفنانة نباهتها ، إذن فليس العجب أن تسحرهم النباهة وقد سحرت آباءهم من قبل ، إن النباهة لسحارة ، وإن كانوا إنما احتفلوا لحسن في الراقصة وفن ، فما أبدع أن ترف حتى القلوب الطفلة على الحسن والفن

ومشبه بالغصن قلبي لا يزال عليـه طائر

إن الحمامات قطعة من التاريخ القديم ، إن تمهدها العصر بالتطرية والصقل كانت قطعة من النعيم :

وحمـام دخلنـاه لأمـر حكى صقراً وفيه المجرمونا
فيصطرخون فيه اخرجونا فـإن عدنا فإنا ظالمونا

هذا عهد للمطفة ، ولقد تصرم قبله عهد كانت تشهد فيه حياة شيخ معمم من كُشّاف الغيب طلائع المستقبل ، شرّق اسمه وغرّب ؛ وجاء الثناء على حذقة بالغيب من كل لغة ومنطق، يفضي إليه الناس كافة من شرق وغربي ، سيان في قصده حملة العمائم وحملة القبعات ، أهل قينا عنـده وباريس ، كأهل أدفينا وسنتريس .

كنا نشهد الباريسية المتحضرة الجامعية إلى جانب القروية المصرية داخلتين إلى الشيخ تستقرئانه رسالة المغيَّب فنقول : آمنّـا بالله ! ما أشبه الناس بالناس! وما أقرب العلم من الجهل إذا تبرأ من العقل !

كان « السيد رمضان » صاحب ذلك البيت المتصدر نضر الله مثواه طليعة وعيناً على الغيوب والخفيات قلما تشهد في فصيلة الشيوخ والمعممين شيخاً مثله حلاوة شمائل ورقة هندام ، ذلك إلى أنه كان قرارة مزايا وملتقى خلال حسنة قلما تتهيأ لسيد غيره إلا بتوفيق من الله

كان السيد رمضان يحمل نفسا طروبا مرحة وأذنا موسيقية، صنّاع اللسان صنّاع اليد بالبيان العربي الساحر والتغني ونقر الأعواد والموسيقيات ، كما هو صناع اللب بتكشيف المحجبات والخفايا، إذا جس أوتاره لمس بها القلوب، كما يلمس بأسراره الغيوب

فلمـــا عبثن بأوتارهن قبيـــل التبلج أيقظنني
دعون هنـاك بأعوادهن فأصلحنهن وأفسـدنني

شد ما حفلت دار هذا المتجسس على الغيب في « ليالي حضراته » حتى فاضت بجمهرة ضخمة من العلية والسوقيين معا، وأمتها لأجلهم صفوة شائقة من نابغة المطربين في الشرق كله . ناهيك منها « يوسف » و « عبده » و « عثمان » و « صالح العربي » وأين عهد صالح ؟؟؟ فمن دون هؤلاء من المطربين إذ ليس فوقهم أحد، ثم اختلف إليها معهم أسراب فاتنة من بنات الكناس وأسرى الحجال من كل مخبأة لعوب ميالة القد سحارة الطرف

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغو ص ميزت من لؤلؤ مكنون

حشدت هذه الغانيات هناك حتى غصت بها نوافذ بيت الشيخ

وشرفاته ، وأقبل الذاكرون ومعهم المنشدون فذكروا كل شيء إلا الله ولم ينسوا النوافذ والشرفات

وكن متى أبصرنني أوسمعن بي   سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

هنا لك كل ما خيل إليك من غمزات الجفون وعمل الفتون.

بينا القوم على ذلك تكلمت الأوتار وتصعدت آهات المطربين الفتانة وتصعدت معها « أنفاس محترقة » من الحشيشة المباحة لتلك المعهد فلم ينصرف القوم إلا بقلوب محترقة :

قالت حكمة عتيدة :

« لو أمكن النيب من نفسه لاستبدل باسمه » أجل : لو أن النيوب مما يستشف أو يقرأ لما استحقت أن تسمي غيوبا وإنما هي إذن شهود

لقد صب الله على هـذا الشيخ التأنق فى مشافهة المنيب قرويا حقيرا من صفوف النعال فطري الطابع فطري الروح واللب، فأخذ يقبل به فى الخدعة ويدبر، فلم يعتصم ولا شافهه غيبه بدخيلة أمره مع هذا التحيل عليه حتى استنزله هاتنا قرير العين عن ثلثمائة دينار مصرى كاملة زعم أنه مشترٍ له بها عقارا فى الريف إذا هو رجع إلى أهله، فذهب بها طليقا مرفهاً إلى اليوم ولم يشتر لملامة النيب إلا العار والسوءة : فهل ترشد الأمة المخدوعة ؟

إن العلم والعقل ينصرهما الدين لم ينيرا سبيلاً إلى النيب فما أجدر الحاكمين بأن يتزلوا بالشعوذة فتكة صارعة تفسل معرة الاجتماع وتثلج صدر العلم والعقل

هذه التى نصف ، عطفتنا « عطفة الألايلى » فيما تسمى و « عطفة القاياتى » فيما نريد ، ضنكة مظلمة نأوى إليها مشتهاة فاتنة للألف كما يأوى النحل إلى بيته وخلاياه ، ورب مملول لا يستطاع فراقه

ولى وطن آليت ألا أبيعه   وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

وحبب أوطان الرجال إليهم   مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو   عهود الهوى فيها فحنوا لذلكا

شيئان من هـذه الحارة مكروهان عندنا جد بغيضين ، ولا كتمان للحق ، أول الشيئين الحارة نفسها ، والثانى اسمها . أما الحارة فلسنا نملك تبديلاً لخلق الله فيها ، وأما الاسم فهو لأسرة تركية عريقة كانت تقطن فيها وقد ترحلت عنها قديماً فما يتضنع اسمها أحد اليوم ولا يختلج به صدر ولا فم حتى لتحسب كلمة « الألايلى » هذه اللغز الذى لا يحل

من أجل ذلك مشى الحي إلى ولاة الأمر يقترح شهى لديهم أن يأذنوا فى تسمية « عطفة الألايلى » ، « عطفة القاياتى » أنساً بجيرانهم المعاصرين لهم واستئناساً بأن ذكر بيت القاياتى قد صاحب التاريخ فى مصر فترة وامتضغ اسمه من قبل أيام كان جدهم الأعلى « شمس الدين القاياتى » قاضى القضاة بمصر ينزل فى هذه الأحياء فى سنة خمسة وثمانين وسبعمائة هجرية

مشي الحى بهـذا المقترح المرجو إلى من يملك الأمر فلم يؤذن له أن يسمع ولاحظى عنده ، والحاكم الله

إن كان ولاة الأمر قد اصطفوا « عطفة الألايلى » لأنهم يغلون بقدرها ويحتجزونها لتوسم « بعطفة الحرية » أو «عطفة الاستقلال» ليوسم بها عهد الاستقلال والحرية فهنيئا لنا بالحرية والاستقلال ويابرد هذا على الكبد ، وإن لم يكن بهم إلا الضن علينا وحده فليعلموا أن سنة من يكتبون إلينا ويتحدثون عنا قد مضت بأن يكتبوا إلينا «عطفة القاياتى» ويقولوها ،وألسنة الخلق أقلام الحق ، فلن يكون إلا ما نريد ، ولن يكون الاسم الذى يحمله صدر العطفة وهو « عطفة الألايلى » إلا كذبا وسميا كالدم على قميص يوسف ، ولن تكون عطفتنا إلا « عطفة القاياتى »

حسن القاياتى

سندباد عصرى

فى سفينة مصرية

رددت أخبارها صحف العالمين

الإنسانية فى شتى مظاهرها تطالعك من صفحات

سندباد عصرى

بقلم

حسين فوزى

١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً